١٠

السمارة

كان طريف كالنحلة موردأ يستخرج بشعوره وخياله من أمرّ ما في الوجود . أطيب ما في الوجود ، لا يتبرم بالحياة ولا يتظلم منها مهما روعه الدهر . وأثخن في قلبه الجراح . غير دقائق لا تكاد تنقضي حتى يعود كما كان طلق المحيا منبسط الجنان سعيداً .

غير أن الوهن الذي أذاب جسمه ، وامتد إلى أعماق نفسه بدل مزاجه ، ولون شعوره ، فبات كئيباً منقبضا . لا يحس للذة من اللذائذ طعما . ولا يجد فيما كان مبعث بهجته واغتباطه غير الزفرات والحسرات . فنصح اليه الأطباء بالراحة وتبديل الهواء جنوبي فرنسا .

وبينما نتمشى أصيل يوم من أيام الخريف الصافية في المهيع الذي يشطر مونبليه شطرين . إذا به يتنهد من أعماق قلبه . ويشكو جور الطبيعة عليه واستبداد الزمان به

obeikandi.com

فتوجعت لحاله ورحت أنشد :

تعب كلها الحياة فما أعجب   إلا من راغب فى ازدياد

وما أن فرغت من إنشاد هذا اللحن الحزين ، حتى اعترضنى قائلا : أتؤمن بفحوى هذا البيت: فقلت دهشا: كيف لا والحياة من يوم الخليقة إلى يومنا هـــذا آلام وأوجاع تتوالى . وهي لن تكون غير ذلك . ما دام قوامها الاجبار . ألم نأت الدنيا مرغمين ، ونعيش فيها مرغمين ، ونغادرها مرغمين .

قال بلى يا صديقى ، إن الحياة مرة قاسية متسلسلة المصائب والرزايا مزدحمة الأوصاب والهموم. ولـكن تذكر أنها حلوة أيضا جذابة محببة إلى نفسك قريبة من قلبك . وأن البشر كافة يشاطرونك شعورك لا فرق فى ذلك بين عالم وجاهل . بين مؤمن وملحد، ومحسن ومجرم . حتي إن أتعسهم حظا وأعظمهم بلاء لا يرضون عنها بديلا . ولا يغادرونها إلا بنفس ذاقت الموت — وما دام شوقنا للحياة متغلغلا فى الجبلة بالغا أقصاه . فان من الخطل

obeikandi.com

والطيش والجنون أن نعرض عنها ونفنى أعمارنا فى البكاء وشكوى الزمن .

إن مثلنا فى هذه الدنيا . كمثل قوم هبطوا على غير علم منهم جزيرة من الجزر واضطروا إلى الاقامة فيها فهل من العقل والحكمة أن يقضى هؤلاء القوم أيامهم شاكين ناعين . بحجة أنهم نزلوا الجزيرة دون استشارتهم أم أن يقتفوا خطى حى بن يقظان وروبنسون فيستثمروا تلك الجزيرة ، وينعموا بما فيها من خير وجمال .

إن الطبيعة فتانة فى محاسنها . غنية فى مواردها . معطاءة لخيراتها . فعلينا أن نقبل عليها وأن نعلم كيف نخضعها لسلطاننا . ونفجر من أحشائها وعلى جنباتها ينابيع النعمة والثراء كما يفعل الغربيون الذين تقدمونا فى هذا المضمار وسواه آماداً بعيدة . مع أن بلادهم دون بلادنا خصبا وجمالا ، ورجالنا لا يقلون عن رجالهم مواهب وطموحا .

قلت وما يجدينا ذلك ما دام ما ندعوه بالسعادة وتتلمسه فى جميع ما يصدر عنا من فعال وأقوال وما يختلج

بين جنبينا من أحلام وأمانى إن هو إلا سراب خداع لا يكاد يلمع وميضه حتى يختفى عن الأبصار تاركا فى القلب غصة وفى المخيلة شبحاً وحسرة .

قال يسوؤنى أن تكون يا صديقى من أولئك الذين تستعبدهم الأفكار الموروثة . وتتحكم فى مشاعرهم ومصائرهم تحكم الغباوة بالغبي، والسفاهة بالسفيه . فأنت لا تجحد السعادة ، إلا لأن المجتمع الذى نشأت فيه طبع فى نفسك هذا الجحود منذ نعومة أظفارك فآمنت به تقليداً. ولو أنك أنعمت النظر فى قولك إنعام الباحث المدقق المتجرد عن الهوى الشخصى والمذهب الفلسفى والدينى . لكان لك رأى غير هذا . ويحسن بى قبل أن أتناول بالبحث هذا الموضوع الخطير أن أذكرك ان الانسان مهما ارتقى فى سلم الحضارة والعمران . ومهما بلغ من العلم والتفكير فانه مازال يعيش بشعوره وهواه أكثر مما يعيش بعقله وفكره . وأن شعوره وهواه إن هما سوى صدى ما بين جنبيه من حاجات عضوية قلبية عقلية . فنحن من مطلع حياتنا الى

مغريها مفتقرون إلى أن نعمر جسمنا بالطعام ، وعقلنا بالمعرفة ، وقلبنا بالحب . وما إلى ذلك من ألوان الشعور ؟

وهذه الحاجات المتزايدة مع الزمن تختلف لدينا قوة وضعفا باختلاف أمزجتنا . وما يكتنف حياتنا الفردية . والاجتماعية من مؤثرات وعوارض . فالذين جبلوا ونشئوا على حب المعرفة يحسون وطأة الحاجة إلى الدرس والتثقف ، ويرون أنفسهم محمولين على إرضائها طوعا أو كرها . أكثر ممن لم يدخلوا معهداً ولم يقرأوا كتابا .

ويبدو لى أن الناس جميعا ينتظمون من هذه الوجهة زوجين اثنين أو ثلاثة : العامة والخاصة والمرضى .

إن جل البشر عاديون فى حاجاتهم لا يحسون إحساسا قويا ملحا غير الحاجات الضرورية لحفظ النوع ؛ كالافتقار إلى الطعام . والتزاوج والتناسل . فهذه الحاجات وما يتصل بها من قرب أو بعد . هى وحدها مبدأ أحلامهم ومنتهاها فإن قضوها وأشبعوها رضوا عن الحياة واطمأنوا اليها : ورغبوا فيها . وبكلمة واحدة كانوا سعداء ذلك بأن السعادة

obeikandi.com

لديهم تقوم على إرضاء ما لهم من حاجات حيوانية

وهذا اللون من ألوان السعادة أقدم ما عرفه الانسان في تاريخه إذ أنه يكاد يكون مشتركا بين أفراد الجنس.

أما الخاصة وإن شاركوا العـــامة نزعاتهم، فانهم يمتازون عنهم بما لهم من حاجات قهارة تتغلب على غيرها من الحاجات المألوفة، وتصبح هى وحدها الباعث الأول لأعمال من يحسونها كحاجة البحث عن الحقيقة لدى الامام الغزالى، واستنباط الأحكام الشرعيـة لدى الامام مالك، وما قلته فى هذين الامامين الكبيرين ينطبق من هـذه الوجهة على كل من حمل فى حنايا ضلوعه لبانة من تلك اللبانات القهارة سواء أكان غرض تلك اللبانة علما أم فناً، دينـــا أو سياسة، هوى بريئا أم فسوقا أثيما، فالغزالى وابن الفارض والمتنبى والأفغانى وفيصل وزغلول وأديسون وقيس لبنى وأبو نواس كلهم من الخاصة فى لباناتهم، وإن اختلفت أهدافهم نبلا وصغاراً.

لا جدال فى أن الخاصة يجدون فى تغـذية لباناتهم

المألوفة ما يجده العامة من لذة . بيد أن السعادة لن تغمر نفوسهم الا بمزاولة لباناتهم تلك .

فالغزالى حجة الاسلام لا يعرف السعادة الا فى إدراك الحقيقة المطلقة والتقرب منها بالتأمل والعبادة ، والذود عن شريعتها السمحة . وابن الفارض سلطان العاشقين لا يعرفها الا فى الكشف والفناء فى ذات الخالق جل جلاله على مذهب المتصوفة . والمتنبي قطب شعرنا العربى كله لا يلقى السعادة الا فى قبضة الصمصام وتضريب أعناق الملوك . وفيصل وزغلول لا يلقيانها الا فى رفع الضيم عن مجتمعنا العربى وتحقيق أمانى الدنيا العربية . أما قيس لبنى فلا يدرك السعادة الا بقرب زوجته المطلقة قسراً ، وأبو نواس لا يدركها إلا فى تأليه الخمرة وتجرير أذيال الفسوق .

ويتضح لك مما أسلفت أن السعادة نسبية لدى الخاصة ، مطلقة لدى العامة . وسواء أكانت هذه أم تلك فانها ليست العنقاء كما زعم الشرق ولا قميص الراعى كما زعم الغرب . بل هى حقيقة تتجلى فى الرضى عن الحياة والاطمئنان

اليها والرغبة فيها . وأى شيء يحق لنا معاشر الآدميين أن تتطلب من الدنيا أكثر من هذا الشعور العميق ، الذى إن فات أناسا فقد غمر آخرين ، وسيغمر غيرهم : ما أسعدهم الجد بمزاولة ما لهم من آمال عزيزة وأحلام غالية .

فقلت : ولكن لا يغيبك ياطريف أن الانسان جشع لا يقضى مأربا من المآرب حتى يستهويه مارب كمن يستهدف الأجازه بدافع اللذة ، . فانه لا يكاد ينال هـذه الشهادة حتى يتطلع الى سواها فالحياة كلها لبانات متسلسلة آخذ بعضها برقاب بعض.

قال ليست الأجازة هدف طالب العلم يا صديقى . ولكنها إحدى المراحل التى يمر بها فى طريقه الى هدفه الأسمى « المعرفة » . وهب أنها كانت هدفه فأى ضرر فى أن يطمح الى مايعلوها من الشهادات ما دمنا كلما بلغنا هدفاً نشعر بغبطة عظيمة وما دام السعى نفسه وراء الهدف يديم هذه الغبطة ، ويحول دون انقضائها ، فتسلسل اللبانات وانبثاقها بعضها عن بعض لا يبعد عنا السعادة بل يذكيها ،

فالسعادة حركة مستمرة مطردة النمو والاتساع ، كالشجرة المثمرة تغرسها وتتعهدها بالرعاية ، فان نمت وارتفعت خضراء متماوجة الأغصان وارفة الظل طيبة الثمر أبهجك ماتبصر فيها من نتاج جهدك ، وتمتعت بمنظر زاه ، وثمر شهى ، وظل ظليل .

على أن فئة من الناس وان وفقوا فى قضاء مآربهم الغلابة القهارة ، فانهم لا يعرفون السعادة ، ذلك بأنهم مرضى .

إن النفوس كالأجسام لها أمراضها التى تؤذيها ، وتنفح فى بهجة الحياة وأفراحها بما يبدل طعمها ويجعلها مريرة المذاق ، وكما أن الأمراض العضوية حقيقية أو وهمية فان الأمراض التى تعتور النفس حقيقية أو وهمية أيضاً ، فالأولى إن لم تكن من غرس الطبيعة فانها كثيرا ما تصيب الأفراد الذين تحققت أحلامهم دون عناء كما تصيب أولئك الذين ازدحمت عليهم المصاعب فى مقتبل العمر ، وأطبقت من كل جانب فأطاشت سهامهم وخيبت المرة بعد المرة أحلامهم وأمانيهم .

أما الأمراض الوهمية فهي التي نخلقها بشذوذ فكرنا وشرود خيالنا ، أو نقتبسها بالعدوى من المجتمع .

ولا مراء ، ان كلا المرضين منتشران فى مجتمعنا العربى انتشاراً عظيما وهو لن يبرأ منهما ، ويبلغ مثله العليا الا اذا استيقظ وسلم قياده الى رجال من بنيه ينحصر فى مشاعرهم ومداركهم معنى الحياة فى تحقيق تلك المثل ، فيعملون على تنظيم بلادنا تنظيما يضمن لأبنائها السعة والرخاء . ويمكنهم جهد المستطاع من إرضاء ابنائهم ، واشباع رغباتهم ، وحينئذ يستطيع كل عربى أن يستثمر مواهبه وكنوز بلاده ، فيحيا راضياً عن الحياة ، مطمئناً اليها ، راغباً فيها ، مجتنياً لذائذها المبثوثة فى كل مكان .

وكأن هـــذا الحديث ، أشحذ عزم طريف ، وأثار طموحه ، فما كاد ينطق بالجملة الآخيرة حتى كان فى طريقه إلى الحى اللاتينى ، حيث نال فى نهاية العام الدراسى دبلوماً وشهادتين ، وأخذ يحضر فى العام الذى تلاه شهادة ودبلوما ، فضلا عن أطروحة الدكتوراه فى الحقوق .